مُدَّة، وزوَّجه ابنته، وكان نور الدين يبغض عبد المسيح لظُلْمه، فخاف عبدُ المسيح أن يعزله عمادُ الدين زنكي، فاتَّفق مع الخاتون بنت حسام الدين تمرتاش صاحب مارِدِين زوجة قُطْب الدين أن يثنوا قطب الدين عن عماد الدين، وأن يستخلف ولدَه سيف الدين غازي بن مودود، فعهد إليه، وتوفي قطب الدين وقد جاوز الأربعين، فكانت ولايته إحدى وعشرين سنة، ولما بلغ نورَ الدِّين فعلُ عبد المسيح واستبدادُه [قال: أنا أولى][(١)] بتدبير أولاد أخي من غيري. وقَصد المَوْصِل.

أبو بكر ابن الدَّاية[(٢)]

[ويلقب][(٣)] مجد الدِّين.

وكان شجاعاً دَيِّناً، من أكابر أُمراء نور الدِّين، بنى بحلب خانكاه، [وهي باقية إلى هلم جراً][(٣)] واتَّفق موتُ العمادي في هذه السنة [وكان من أعظم أمرائه][(٣)]، فبكى نور الدين، وقال: قُصَّ جناحاي. وأعطى أولادَ العمادي بَعْلَبَكَّ، وقدَّم على العساكر سابقَ الدِّين عثمان بن الدَّاية أخا مجد الدِّين، ودفن مجدُ الدين بحلب، والعمادي بقاسيون في تُرْبةٍ قريبة من تربة شركس شماليِّها، وهي أَوَّلُ تربةٍ بنيت في الجبل، واسمه مكتوبٌ[(٤)] على بابها: هذه تربة محمد بن العِمادي.

السنة السَّادسة والستون وخمس مئة

في أول المحرَّم سار نور الدين إلى سِنْجار، ففتحها، وسلَّمها إلى عمادِ الدين زنكي ابنِ أخيه، وسار، فنزل على المَوْصِل من المشرق، عَبَر من مخاضة عند بَلَد، وكان عبد المسيح قد نفَّذ عِزَّ الدين مسعود بن مودود إلى أتابك إيلدكز يسأله شفاعةً إلى نور الدين بالكَفِّ عن المَوْصِل، فجاء الرَّسول إلى نور الدين، وأبلغه الرِّسالة، فقال

(١) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق، انظر «الروضتين»: ٢/ ١٦٦.

(٢) أخباره مبثوثة في «الروضتين»، وكتب تاريخ تلك الفترة. وما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٤) في (م) و(ش): ووقفت على باب التربة وعليها مكتوب.

للرسول: قُلْ لصاحبك: أنا أَرْفَقُ وأَشْفَقُ على أولاد أخي منك، فلا تدخل بيننا، وعند الفراغ من هذا الأمر أسير إليك، ويكون الجواب على باب هَمَذان، فإنَّك قد أهملت أمور الثُّغور حتى استولى عليها الكُرْج، وأنا وَحْدي بالشَّام، وقد ابتليتُ بأشجع النَّاس، وأشدِّهم بأساً وهم الفرنج، فأسرتُ ملوكهم، وقتلتُ كنودهم، وبعتهم بيعَ العبيد، واستوليتُ على بلادهم، فلا يَسَعُني في دِيْني أنْ أَدَعَكَ على ما أنتَ عليه. وكان كلُّ مَنْ بالمَوْصِل مع نور الدين، وكاتبوه بالوثوب على عبد المسيح، وتسليمِ البلد إليه، وعَلِمَ عبدُ المسيح، فراسله في الطَّاعة، وتسليم البلد إليه، وتقريره على سيف الدِّين، وأن يكون عبدُ المسيح مقيماً به على حاله، فقال نور الدين: أمَّا تقرير سيفِ الدين على البلد فَنَعَمْ، وأما أنتَ عبدَ المسيح، فلك الأمانُ على نَفْسك ومالك، وما يَحِلُّ لي أَنْ أَدَعَكَ في المَوْصِل لظُلمك وعَسْفك، ولكني آخذكَ معي إلى الشَّام، وأُحْسنُ إليك.

ثم فتحتِ الأبواب لنور الدين، فدخل المَوْصِل في ثالث عشر جُمادى الأُولى، وولَّى عليها خادماً، يقال له كُمُشْتِكِين بالقلعة، وقرَّر ابنَ أخيه سيف الدين على حاله.

وكان نور الدين قد بعثَ العمادَ الكاتب إلى الخليفة يستأذنه فيما يفعل، فوصل العماد ونورُ الدِّين على المَوْصل، ومعه الخِلَع والتَّقليد، فأَلْبَسَ ابنَ أخيه سيف الدين الخِلْعة، وأزال من المَوْصل الضَّمانات والمكُوس، وعَدَلَ وأحسنَ إلى أهله، وأعطى عمر المَلَّاء ستين ألفَ دينار من فتوح الفرنج، وأمره بعمارة الجامع النُّوري وسط البلد، وأعطى جزيرةَ ابنِ عمر لابنِ أخيه سيف الدين مضافاً إلى المَوْصل، وأقام عشرين يوماً، وكان يحبُّ الموصل، فقيل له: لو أقمتَ بها. فقال: ومَنْ يجاهد الكُفَّار، ويحفظ بلاد المسلمين! ثم رحل نحو الشَّام ومعه عبد المسيح، وقد أحسن إليه، وأقطعه إقطاعاتٍ كثيرة، ثم قال له: ويحك، ما هذا الاسم القبيح، أَمَا كان في الدنيا مسلمٌ يغيِّره، وكيف وافقك أخي قُطْب الدين على هذا؟ وسمَّاه عبد الله.

وفيها توفي المستنجد، وولي المستضيء.

الباب الثالث والثلاثون في خلافة المستضيء بأمر الله

وهو أبو محمّد الحسن بن يوسف المستنجد بأمر الله، وأُمُّه أُمُّ ولد تدعى غضة أرمنية.

ولد في شعبان سنة ستٍّ وثلاثين وخمس مئة، ولم يلِ الخلافةَ مَنْ اسمه الحسن وكنيته أبو محمد غيرَ الحسن بن علي عليه السَّلام والمستضيء.

بويع بالخلافة يوم الأحد تاسع ربيع الآخر، وأَطْلَقَ الأموال للأمراء والعلويين والهاشميين والقُضَاة والعلماء وجميعِ الناس، وردَّ المظالم، وأسقط المكوس، وولى أمر الجند والممالك قُطْبَ الدِّين قيماز مملوك المستنجد، ولقبه ملك العرب والعجم، واستوزر ابن رئيس الرؤساء، وكان الوزير ابن البلدي قد قُتلَ يوم مات المستنجد، ولما ولَّى ابنَ رئيس الرؤساء الوِزارة خَلَعَ عليه، ومشى بين يديه قُطْبُ الدِّين وأربابُ الدولة، ولم يتخلف أحد، وجلس في الديوان، ومدحه الشُّعراء، فقال ابنُ التعاويذي: [من الكامل]

الـدَّسْـتُ مـن لألاء وَجْـهـك مـشـرقُ ... وعـلـى الـوِزارة مـن جـلالـك رَوْنَـقُ
رُدَّتْ إلـيـك وأصـلُـهـا بـك ثـابِـتٌ ... عـالـي الـبـنـاء وفَـرْعُـهـا بـك مُـوْرِقُ
أنـتـم وإن رَغَـمَ [1] الـعِـدَى وُرَّاثُـهـا ... قِـدْمـاً وغـيـرُكُـمُ الـدَّعـيُّ الـمُـلْـحَـقُ
لـكُـمُ اسـتـقـادَ عـلـى الإبـاء شَـمُـوسُـهـا ... وبـكُـمْ تَـجَـمَّـع شَـمْـلُـهـا الـمـتـفـرِّقُ [2]

وأنشد الحيص بيص: [من الوافر]

أقـول وقـد تـولَّـى الأمـرَ حَـبْـرٌ ... ولـيٌّ لـم يَـزَلْ بَـرًّا تـقـيّـا
وقـد كُـشِـفَ الـظَّـلامُ بـمـسـتـضـيءٍ ... غـدا بـالـخَـلْـقِ كـلِّـهُـمُ حَـفِـيّـا
بـلـغـنـا فـوقَ مـا كُـنَّـا نـرجِّـي ... هـنـيـئـاً يـا بـنـي الـدُّنـيـا هَـنِـيّـا
سـأَلْـنـا الـلـه يَـرْزُقُـنـا إمـامـاً ... نُـسَـرُّ بـه فـأعـطـانـا نـبـيًّـا [3]

---

(١) رغم: كره: «اللسان» (رغم).

(٢) انظر القصيدة في «ديوان سبط ابن التعاويذي»: ٢٩٦-٢٩٨.

(٣) الأبيات في ديوانه ٣/ ٢٧٩، وقد أوردها العماد الكاتب في «الخريدة»، قسم شعراء العراق: ٢/ ٣٣٠.
قال إبراهيم، عفا الله عنه: والبيت الأخير فيه الغلو المفضي إلى الكفر والعياذُ بالله، مما يقدح بالمادح والممدوح على السواء، المادح بقوله والممدوح بقبوله، نسأل الله السلامة.

وقال عبد الرَّحمن بن محمّد بن عبد السّميع الواسطي الهاشمي: رأيت في المنام ليلة مات المستنجد قائلاً يقول: [من البسيط]

ماتَ الخليفةُ واستولى على النَّاسِ ... ابنٌ له طاهرٌ من نَسْلِ عَبَّاس
فارحلْ إلى بابه واضرعْ إليه تَجدْ ... من جُوده دافعاً للضُّرِّ والباسِ
والظُّلْمُ والجَوْرُ قد حُصَّتْ قوادِمُهُ ... مع الخوافي وخافَ القَطْعَ بالرَّاسِ
مَنْ يَفْعلِ الخيرَ لا يَعْدَمْ جوازيه ... لا يذْهَبُ العُرْفُ بين اللهِ والنَّاسِ[1]

وولَّى المخزن ظهير الدِّين ابن العَطَّار، وولَّى ابنَ البخاري الدِّيوان، وولَّى ابن الشَّاشي تدريس النِّظامية، وولَّى الأمير السيد العلوي التدريس بجامع السُّلْطان ببغداد.

وفيها بعث الخليفةُ رسولاً إلى نور الدين يعرِّفه بخلافته، ويطلب البيعةَ له، فقال له العماد الكاتب: [من الكامل]

هل عائدٌ زمنَ الوِصالِ المنقضي ... أم عائِدٌ لي في الصَّبابة ممرضي
لا أشتكي إلا الغرام فإنَّه ... بَلْوى عليَّ من السَّماء بها قُضي
يا لاح حالي في الهوى مشهورةٌ ... حاولتَ تسليتي وأنتَ محرِّضي
أنفقتُ ذُخْرَ الصَّبْرِ من كَلَفي فهل ... من واهبٍ للصَّبْرِ أو من مُقْرضِ
لهفي على زمنِ الشَّباب فإنني ... بسوى التأسُّفِ عنه لم أتعوَّضِ
نُقِضَتْ عهودُ الغانياتِ وإنها ... لولا انقضاءُ شبيبتي لم تنقضِ
يا حُسْنَ أيَّام الصِّبا وكأنَّها ... أيامُ مولانا الإمامِ المستضي
ذي البهجةِ الغَرَّاء يُشْرِقُ نورُها ... والطَّلْعة الزَّهْراءِ والوجْه المضي
قَسَمَ السَّعادةَ والشَّقاوة ربُّنا ... في الخَلْقِ بين مُحِبِّهِ والمُبْغِضِ
فَضَلَ الخلائفَ والخلائقَ بالتُّقى ... والفَضْلِ والإفضالِ والخُلُقِ الرَّضي
فانْعَمْ أميرَ المؤمنين بدَوْلةٍ ... ما تنتهي وسعادةٍ ما تنقضي[2]

فبعث نور الدين إلى الخليفة شرف الدين ابن أبي عصرون نائباً عنه في الخِدْمة.

---

(١) هذا بيت مشهور للحطيئة، وقد ضمنه أبياته، انظر «ديوانه»: ص٥١ .

(٢) انظر بعض الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ٢/١٧-١٨ ، و«كتاب الروضتين»: ٢/١٧٩-١٨٠ .

وفيها بنى صلاحُ الدِّين بالقاهرة مدرسةً للشَّافعية، وكان موضعُها حبسَ المعونة، وبنى بها أيضاً مدرسة للمالكية تعرف بدار الغزل، وولَّى صدر الدين عبد الملك بن دِرْباس الكُرْدي القضاء بالقاهرة ومِصْر وأعمالها.

وفي جُمادى الأُولى خرج صلاح الدين بالعساكر إلى الشَّام، فأغار على غَزَّة وعسقلان والرَّمْلة، ومضى إلى أَيْلة وكان بها قلعة فيها جماعةٌ من الفرنج، والتقاه الأُسطول في البحر، فافتتحها، وقَتَلَ مَنْ فيها، وشحنها بالرِّجال والعُدَد، وكان على الحجازِ منها خَطَرٌ عظيم، ثم عاد إلى القاهرة في جُمادى الآخرة.

وفي شعبان اشترى تقيُّ الدِّين عمر بن شاهنشاه منازل العِزّ بمصر، وعملها مدرسةً للشافعية، ووقفَ عليها حمام الذهب والرَّوضة وغيرهما.

وفيها توفي

عبد الله بن خلف[1]

ابن عبد الله الكَفْرطابي، ولد بشَيْزَر، وقدم دمشق سنة تسعٍ وعشرين، وأقام بجامع حماة يدرِّس النحو اثنتي عشرة سنة، ومات بها، وكتب إلى ابن منيرة[2]، وقد حال بينهما الوَحَل: [من البسيط]

يا حُجَّتي حين ألقى الله مُنْفَرِداً ... تفديك نفسيَ بالأَهْلين والوَطَنِ
بيني وبينك سورُ الوَحْلِ ليس له ... بابٌ فقلبي رهينُ الهَمِّ والحَزَنِ
ما هَجْرُ مِثْلِكَ محمودٌ عواقبُهُ ... ولا التَّصبُّرُ عن رؤياك بالحَسَنِ

محمد بن أسعد[3]

أبو المُظَفَّر، العراقي، الواعظ.

---

(١) له ترجمة في «تاريخ ابن عساكر»: ٩/ ١٦٤ .

(٢) هو محمّد بن يوسف بن عمر المعروف بابن منيرة الحولي، توفي سنة (٥٥٣هـ)، وقد سلفت ترجمته في وفياتها، وانظر «معجم الأدباء»: ١٩/ ١٢٢-١٢٣ ، و«الوافي بالوفيات»: ٥/ ٢٤٧ ، و«خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٥٧٣-٥٧٤ .

(٣) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق، مج ١/ج٣/ ٢٦٦-٢٧٣، «المحمدون»: ٢٠٨-٢١١ ، و«ذيل تاريخ بغداد» لابن الدبيثي: ١/ ١٧٦ ، و«العبر» ٤/ ١٩٩ ، و«ميزان الاعتدال»: ٣/ ٤٨٠ ، و«المختصر المحتاج إليه»: ١/ ٢٥ ، و«الجواهر المضية»: ٣/ ٨٩-٩٢ ، و«الوافي بالوفيات»: ٢/ ٢٠٣ ، وتوضيح المشتبه: ٣/ ٢٨٧ ، =

توفي بدمشق، ودفن بالباب الصَّغير، ومن شعره: [من الطويل]

ألا هَلْ لِصَبٍّ بالشآم متيمٍ ... بحبِّكُمُ بين الأنام بلاغُ
له شُغُلٌ بالحبِّ عن كل شاغلٍ ... وليس له عما عراه فراغُ
تجرَّع يوم البَيْنِ كأسَ فراقكم ... فليس لكأس الصَّبْر فيه مساغ[1]

محمود بن نعمة الشَّيْزَرِي[2]

أبو الثَّناء.

شاعرٌ فصيح، وهو القائل: [من الطويل]

يقولون كافات الشِّتاء كثيرة ... وما هي إلا فَرْدُ كافٍ بلا مِرا
إذا صحَّ كاف الكيس فالكلُّ حاصِلٌ ... يصحُّ وكلُّ الصَّيْدِ يوجد في الفَرا

يوسف المستنجد بالله ابن المقتفي محمّد[3]

ولد في ربيع الآخر سنة عشر وخمس مئة، وكان أسمرَ طويلَ اللِّحْية، معتدلَ القامة، شُجاعاً، مهيباً، عادلاً، رفيقاً بالرَّعية، ذكياً فطِناً، فصيحاً، أزال المظالم والمكوس [وله واقعات عجيبة][4] كتبَ إليه منكورس شحنة البَصْرة يطلب أمانه، وكان قد عصى عليه، فوقع على رأس الرُّقْعة: يُؤَمَّن ولا يُؤْمَن.

وأشكى إليه رجلٌ من القاضي، فوقَّع على الرقعة: تجنَّبِ الآثام، وأنصفِ الأنامَ، وخَفْ سطواتِ حاكم الحُكَّام.

= و«لسان الميزان»: ٥/ ٧٣-٧٤، و«تاج التراجم»: ١٨٥-١٨٦، و«الدارس»: ١/ ٥٣٨-٥٣٩، «طبقات المفسرين» للداودي: ٢/ ٨٧-٨٩، «شذرات الذهب»: ٤/ ٢١٨، وفي بعض المصادر وفاته سنة (٥٦٧هـ).

(١) الأبيات في «الخريدة» قسم شعراء العراق: مج١/ ج٣/ ٢٧١.

(٢) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٥٧٥-٥٧٩، و«النجوم الزاهرة»: ٨/ ٣٥٨-٣٥٩، وفيه وفاته سنة (٥٥٦هـ)، وذكره ابن خلكان في «وفيات الأعيان»: ٤/ ٤١٣.

(٣) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ٢/ ١٨-٢٢، و«المنتظم» ١٠/ ١٩٢-١٩٤- ٢٣٦، و«الكامل»: ١١/ ٢٥٦، و«الباهر»: ١٥٠-١٥٢، ٣٦٠-٣٦٢، و«الروضتين»: ٢/ ١٧٧-١٧٨، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٤١٢-٤١٨، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٤) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

والتقاه ابن شبيب في البرية في الرَّبيع، فقال له الخليفة: أين شتَّيت؟ فقال: عندك يا أمير المؤمنين. أراد الخليفة ابن شبيب، وأراد ابن شبيب عبدك.

وقبض الخليفةُ على إنسان يسعى بالنَّاس، فشفع فيه بعضُ أصحاب الخليفة، وبذل عشرة آلاف دينار [فقال له الخليفة: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار][1] وأحضر لي إنساناً مثله يُؤذي النَّاس بالسِّعايات لأحبسه، وأكُفّ شَرَّه عن النَّاس.

ومن شعر المستنجد: [من الخفيف]

عَيَّرَتْني بالشَّيْبِ وهو وَقارُ ... ليتَها عَيَّرَتْ بما هو عارُ
إنْ تكن شابتِ الذَّوائبُ مني ... فاللَيالي تَزِيْنُها الأقمارُ

وقال في بخيل:

وباخلٍ أشعل في بيته ... طرمذةً[2] منه لنا شَمْعَهْ
فما جَرَتْ من عينها دمعةٌ ... حتى جَرَتْ من عينه دَمْعَهْ

ذكر وفاته:

مرض في ربيع الآخر أياماً، فاحمرَّ الأُفُق، وما زالتِ الحُمْرة على الحيطان وشعاعُها متَّصلٌ بالسَّماء حتى مات، وكان قد فوَّضَ أمورَ العساكر إلى قُطْب الدِّين قيماز مملوكه، فأظهر الاستبداد بالأمر، وبلغه أنَّ قيماز يجتمع بالمستضيء، وأنَّ بينهما مراسلاتٍ، فتغيَّر عليهما، وكان وزيره ابنُ البلدي قد اطَّلع على الحال، وأخبر المستنجد، فأمره بالقبض عليهما، وخاف قيماز، ومرض المستنجد، وكان له طبيبٌ، يقال له ابن صفية، فخلا به قيماز، وقال: خَلِّصْنا منه وإلا قتلتُك. فقال: به حُمَّى محرقة، وليس عليه أضَرَّ من الحَمَّام. فدخل عليه قيماز وهو في فراشه، فقال: قد وَصَفَ لك ابنُ صفية الحَمَّام. فقال: لا حاجة لي فيه. وقيماز يقول: لابُدَّ لك منه. فحمله كَرْهاً وهو يقول: بلى ينفعك. فأدخله الحَمَّام، وأغلق عليه الباب، وقطع [عنه][1] الماء البارد، فمات يوم السبت ثامن ربيع الآخر، ودفن بالدَّار وقد بلغ ثمانياً

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) الطرمذة: المفاخرة والنفج: «تاج العروس» (طرمذ).

وأربعين سنة، وكانت خلافته إحدى عشرة سنة وشهراً، وعمل العزاء ثلاثة أيام، [قال جدي: وتكلمت فيه وخُلع عليَّ][1].

ولما جلس المستضيء للبيعة، عَزَمَ الوزير ابن البلدي على الهرب، فلم يقدر، فاستدعاه المستضيء، فلما دَخَلَ عليه ضربه الغِلْمان بالسُّيوف، ورموا به في دِجْلة.

السنة السَّابعة والستون وخمس مئة

فيها خُطِبَ لبني العَبَّاس بمِصْر [بعد انقطاع الخطبة عن بني العباس فيها مئتي سنة وثماني سنين][2] وسببه أنَّ صلاح الدِّين لما استولى عليها، وضَعُفَ أمر العاضد كتبَ إليه نورُ الدِّين يأمره بقطع الخطبة للمِصْريين، وإقامتها لبني العَبَّاس، فخاف من أهل مِصْر أن لا يجيبوه إلى ذلك، وربما وقعت فتنة لا تُتدارك، فكتَبَ إلى نور الدين يخبره، فلم يسمع منه، وألزمه إلزاماً لا محيد عنه، ومرض العاضد، فجمع صلاحُ الدِّين الأُمراء والأعيان واستشارهم، فمنهم مَنْ أجاب ومنهم من امتنع، وقالوا: هذا بابُ فتنة وما يفوت. فعاود نورُ الدِّين، فأرسل رسلاً، وألزمهم بذلك، فأقامها.

واختلفوا في الخطيب، فقيل: إنَّه رجل من الأعاجم يقال له العالم، وقيل: هو رجلٌ من أهل بَعْلَبَك يقال له: محمّد بن المحسَّن ابن أبي المَضَاء البَعْلَبكي، فأُقيمت في أول المحرَّم والعاضدُ مريض، فأخفى عنه أهلُه ذلك، وقيل بلغه، فأرسل إلى صلاح الدين يستدعيه ليوصيه، فخاف أن يكون خديعةً، فلم يذهب إليه، ومات يوم عاشوراء، فندم صلاحُ الدِّين على قَطْعِ الخطبة، وقال: يا ليتني صبرتُ حتى يموت.

وكتَبَ صلاحُ الدِّين إلى نور الدين يخبره بإقامة الدعوة العبَّاسية، فكتب نورُ الدِّين كتاباً إلى بغداد من إنشاء العماد، وفيه: [من الخفيف]

قد خَطَبْنا للمستضيء بمصرٍ ... نائبِ المُصْطفى إمامِ العَصْرِ
ولدنيا تضاعفَتْ نِعَمُ اللَّـ ... ـهِ وجَلَّتْ عن كلِّ عَدٍّ وحَصْرِ

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش)، وانظر «المنتظم»: ١٠/ ٢٣٣.
(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).